توقعات البشر وحكمة الله

ان لأسعد هنيهات افكاري هي تلك التي اقضيها في تأمل هذا الكون الرحيب... وهذا الفضاء الهائل... والسماء المترامية الاطراف، وكوكب الارض الذي ينعم بدفء الوجود الانساني... تشرق الشمس عليه كل يوم، فتزيده هناء وحبورا.

ثم اتأمل في هذا الكائن البشري العظيم المدعو انسانا... الذي يتوّج الخلق والخليقة. اتفكر في مقدراته وطاقاته وتطوره عبر العصور والازمان... في كيفية نشأته وخليقته الاولى كما ترويها الكتب الدينية والاساطير... ثم في كيفية تدرّكه من كائن الهي الى كائن بدائي، الى كائن انساني... طامحا للعود الى ما كان عليه اصلا!

اتمعن في الماضي، في الحاضر، وفي المستقبل... الذي شهدته وتشهده وستشهده الانسانية... واتساءل: الى اين نحن نسير؟... نحو أي عظمة؟!... والى اي هدف سام نبيل!

امضي اوقاتا طويلة في تخيل هذا المستقبل، وانعم في تلك الراحة والطمأنينة اللتين تضيفهما علي تصوراتي... متمنيا ان تكون جزءا من الحقيقة المستقبلية.

وبعد ان استفيق من احلام اليقظة هذه، ادرك ان عظمة المستقبل تفوق عظمة الحاضر... وان الرب الاله لا بد انه يخطط لمستقبل لم يدر بخلد بشري قط!

واذ انا اتأمل واحلم بين واقع الحاضر وامل المستقبل، تعود بي الذاكرة الى آراء المفكرين ونظريات العلماء التي تنذر بدمار الارض، من منطلق ان الانفجار السكاني سيعم المعمورة الى حد لن يبقى للانسان متسعا على الارض!

كما ان نظرية اخرى تقول ان ما ستنتجه الارض في المستقبل لن يكفي قوتا للبشر، فتعم المجاعة ويفنى البشر!

ومن العلماء من يعتقد احتمال اصطدام الكوكب الارضي بكوكب آخر، فيدمر الكون... او ان الشمس ستقترب من الارض فتحرق هذه الاخيرة بمن عليها!

نظرية إخرى تقول ان تلوث الهواء المتزايد سيعمل على توسيع ثقب الطبقة الهوائية الجوية الواقية (الاوزون) فيتزايد تسرب الاشعاعات الكونية الى محيط الارض... مما يسرّع في انتهاء الحياة عليها!

وثمة نظريات متعددة تتحدث عن الكواكب وانفجاراتها... وعن المحيطات وفيضانها... وعن الارض وزلازلها وكوارثها الطبيعية... وكلها تنذر بنهاية قريبة للارض، وبالتالي لسكان الارض، علما ان ما من نظرية تبشر بمستقبل مزدهر او آمن مستقر!!!

وفي خضم تأملاتي الهانئة في الحياة والوجود والانسان، ينتابني الهلع والاضطراب حين يتناهى الى ذاكرتي بعضا من تلك النظريات المتشائمة المخيفة... فتتسارع الاسئلة الى ذهني: هل يعقل ان خالق الكون (تلك الطاقة العظيمة الواعية التي انبثق منها الكون) لم يحسن خلقه، او لم ينتبه الى الكوارث التي تهدد كوكبنا بالدمار؟... او ان الامر تعدى مشيئته... وهو من قيل عنه انه لا تسقط شعرة من رؤوسكم الا باذنه تعالى!

هل من المعقول ان الاله الخالق اوجد الارض وخصوبتها، واوجد الانسان عليها، ولم يستطع ان يوازي بين كمية انتاج الارض واحتياج الانسانية الى الغذاء؟

ام هل من الجائز القول ان الخالق لم يستطع ان يجعل طبقة جوية واقية اكثف من ان تقف في وجه عبث الانسان وجهله؟

ايعقل ان الخالق لم يساو بين مسافات الكواكب، حتى يصطدم كوكبنا بها او يتدمر باشعاعاتها الارض وما عليها؟

كيف يتجرأ العلماء ويتجاهلوا امر الخالق؟ كيف يمكن لكون جبار هائل اوجده الخالق ان يدمره انفجار كوكبي او نقص غذائي او... الخ!!! بل ما هي غاية الخلق في ايصال البشرية الى هذا الحد من التطور المادي (الذي ينقصه تطور انساني - روحي لتتوازن كفتاه) ثم ازالة البشر من الوجود بلمحة بصر؟!

غريب امر تلك النظريات التي اشعرها غوغائية عشوائية ذات منطق ارضي محدود، وفكر متقوقع في نطاق الارض، خال من كل ايمان بالخالق وبأهمية الخلق!

واذا ما افترضنا جدلا ان هذه النظريات تثبتت علما، فهل ينتفي دور الايمان والمنطق السامي للوجود؟ لا بل اين النظام الالهي والعدل الرباني من وراء كل هذا؟!

تعالى الخالق عن كل هذه النظريات التي تعتمد المنطق البشري المحدود، وتتناسى الحكمة الالهية اللامتناهية!

وتعالى الله عن مزاجية في الخلق والتدبير، التي ينسبها اليه بعض علماء الطبيعة والمفكرون والفلكيون!

□ أسعد سيف